الدعوة وحاملوها إلى باقى الأمم ، فلا بُدَّ أنْ يفهموا عن القرآن . فإنْ قُلْتَ : فالأمم الأخرى غير العربية مخاطبةٌ أيضاً بهذا القرآن العربى ، فكيف يستقبلونه ويفهمون عنه ؟ نقول : مَنْ سمعه من العرب عليه أن يُبلغه بلسان القوم الذين يدعوهم ، وهذه مهمتنا نحن العرب تجاه كتاب الله .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

الضمير فى ﴿ إِنَّهُ .. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء] يصح أنْ يعود على القرآن كسابقه ، ويصح أنْ يعود على رسول الله ، ومعنى ﴿ زُبُرِ .. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الشعراء] جمع زبور يعنى : مكتوب مسطور ، ولو أن العقول التى عارضتْ رسول الله ، وأنكرتْ عليه رسالته ، وأنكرتْ عليه معجزته فَطنوا إلى الرسالات السابقة عليه مباشرة ، وهى : اليهودية والنصرانية فى التوراة والإنجيل لوجبَ عليهم أنْ يُصدِّقوه ؛ لأنه مذكور فى كتب الأولين .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى]

فالمبادىء العامة من العقائد والأخلاق والعدل الإلهى وقصص الأنبياء كلها أمور ثابتة فى كل الكتب وعند جميع الأنبياء ، ولا يتغير إلا الأحكام من كتاب لآخر ، لتناسب العصر والأوان الذى جاءتْ فيه .

وحين تقرأ قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

تقول : ولماذا ـ إذن ـ نزل القرآن ؟ ولماذا لم يَقُل وصَّينا به محمداً ؟

قالوا : لأن الأحكام ستتغير ؛ لتناسب كل العصور التى نزل

القرآن لهدايتها ، ولكل الأماكن ، ولتناسب عمومية الإسلام .

لذلك رُوى عن عبد الله بن سلام[1] وآخر اسمه ابن يامين ، وكانوا من أهل الكتاب ، وشهد كلاهما أنه رأى ذكر محمد ﷺ فى التوراة ، وفى الإنجيل . والقرآن يقول عنهم : ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦)﴾ [البقرة]

ولما سمعها ابن سلام قال : ربنا تساهل معنا فى هذه المسألة ، فوالله إنى لأعرفه كمعرفتى لولدى ، ومعرفتى لمحمد أشد[2] .

ويقول تعالى فى هذا المعنى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف]

ويقول سبحانه على لسان عيسى عليه السلام حين يقف خطيباً فى قومه : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦)﴾[الصف]

إذن : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦)﴾ [الشعراء] أى : محمد ﷺ أو هو القرآن الكريم ، فكلاهما صحيح ؛ لأن صفة رسول الله ﷺ موجودة فى هذه الكتب ، أو القرآن فى عموم مبادئه فى العقائد والأخلاق والبعث وسير الأنبياء .

فكان الواجب على الذين جاءهم القرآن أنْ يؤمنوا به ، خاصة وأن رسول الله كان أمياً لم يجلس إلى معلم ، وتاريخه فى ذلك معروف لهم ، حيث لم يسبق له أن قرأ أو كتب شيئاً .

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف ، صحابى أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه الحصين ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ (الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) : « قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » .

والقرآن يؤكد هذه المسألة ، فيقول تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[1] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران]

فكل هذه الآيات وغيرها دليل على أنه ﷺ لا علْمَ له بها إلا بواسطة الوَحْي المباشر في القرآن الكريم ، وكان على القوم أن يؤمنوا به أول ما سمعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ[2] بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) ﴾

آية : أي دليلاً وعلامةً على أن القرآن من عند الله ؛ لأن علماء بني إسرائيل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، أو لم يقولوا للأوْس والخزرج في المدينة : لقد أطلَّ زمان نبيٍّ يأتي سنتبعه ونقتلكم به أيها المشركون قَتْل عاد وإرم[3] ، ومع ذلك لما بُعث النبي ﷺ أنكروه وكفروا به ، وهم يعرفون أنه حق ، لماذا ؟

---

(١) ثوى بالمكان : حلَّه وأقام فيه واستقر به . والمعنى : ما كنت مقيماً عندهم . [القاموس القويم ١/١١٣] .

(٢) أخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية العوفي : كانوا خمسة : أسد ، وأسيد ، وابن يامين ، وثعلبة ، وعبد الله بن سلام . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٣] .

(٣) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

قالوا : لأنهم تنبَّهوا إلى أنه سيسلبهم القيادة ، وكانوا في المدينة أهل علم ، وأهل كتاب ، وأهل بصر ، وأهل حروب .. إلخ . وليلة هاجر النبى ﷺ إلى المدينة كانوا يستعدون لتتويج عبد الله بن أُبىّ ملكاً عليها ، فلما جاءها النبى ﷺ أفسد عليهم هذه المسألة ؛ لذلك حسدوه على هذه المكانة ، فقد أخذ منهم السُّلْطة الزمنية والتى كانت لهم .

وقال ﴿ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرَائِيلَ (١٩٧) ﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يعرفون صِدْق رسول الله ، ولأنه ﷺ جاء بأشياء لا يعرفها إلا هم ، وقد اشتهر منهم خمسة ، هم : عبد الله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ، وثعلبة ، وابن يامين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾

لقد أنزلنا القرآن بلسان عربى على أمة عربية ، ولو أنزلناه على الأعاجم ما فهموه (١) .

وقال الحق وسبحانه وتعالى فى موضع آخر : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت]

(١) قال قتادة : يقول : لو نزلنا هذا القرآن على بعض الأعجمين لكانت العرب أشد الناس فيه ، لا يفهمونه ولا يدرون ما هو ؟ أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم .
- وقال قتادة أيضاً : لو أنزله الله عجمياً لكانوا أخسر الناس به لأنهم لا يعرفون العجمية . أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير . [ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٢٣] .

لماذا ؟ لأن المستقبل مقفول ، فإنْ أردتَ استقبال أيِّ قضية فعليك أنْ تُخرج من قلبك أيّ قضية أخرى معارضة لها ، ثم بعد ذلك لك أنْ تدرس القضيتين ، فما وافق الحق فأدخلْه .

لذلك يقول تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤) ﴾ [الأحزاب] فهو قلب واحد ، لذلك أخرج منه كل قضية سابقة ، وها هو القرآن واحد ، وقائله واحد ، ومُبلِّغه واحد ، ولسانه عربي .

يقول تعالى في وصفهم حالَ سماع القرآن : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ[1] إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾ [التوبة] أي : يريدون التسلُّل والخروج .

ويقول تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا .. (١٢٤) ﴾ [التوبة] أي : ماذا أفادتكم ؟ وماذا زادتْ في إيمانكم ؟

ويقول سبحانه : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا[2] لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد] يعني : ما الجديد الذي جاء به ؟

ويقول عن الذين آمنوا : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

---

(١) قال ابن عباس فيما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم : هم المنافقون . (أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/٣٢٦) .

(٢) عن ابن جريج قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ، ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : ماذا قال آنفاً ؟ فنزلت ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. (١٦) ﴾ [محمد] . ذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/٤٦٦) وعزاه لابن المنذر .

و ﴿الْأَعْجَمِينَ (١٩٨)﴾ [الشعراء] جمع : أعجمى ، والأعجم هو الذى لا يُحسن الكلام العربى ، وإنْ كان ينطق به ، والعجميّ ضد العربيّ والعجم غير العرب . فالمعنى ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ ..(١٩٨)﴾ [الشعراء] أى : القرآن العربى على بعض الأعجمين ما فهمه ، وقال ﴿بَعْضِ .. (١٩٨)﴾ [الشعراء] لمراعاة الاحتمال ، فمن العجم مَنْ تعلَّم العربية وأجادها ويستطيع فَهْم القرآن .

وقوله تعالى : ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)﴾ [الشعراء] لأنهم لم يفهموا منه شيئاً ، فكذلك أنتم مثل هؤلاء العجم فى تلقِّى واستقبال كلام الله ، لم تفهموا منه شيئاً .

ذلك لأنهم أحبوا الكفر والعناد وأصرُّوا عليه ، واستراحتْ إليه قلوبهم حتى عَشقوه ، فأعانهم الله عليه ، وختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمانٌ ، ولا يخرج منها كفر .

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢)﴾

معنى ﴿سَلَكْنَاهُ .. (٢٠٠)﴾ [الشعراء] أدخلناه فى قلوب المجرمين ، كأنهم عجم لا يفهمون منه شيئاً ، لذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١)﴾ [الشعراء] وما داموا لن يؤمنوا به حتى يروا العذاب الأليم فلن يُقبلَ منهم إيمان .

ومعنى ﴿بَغْتَةً .. (٢٠٢)﴾ [الشعراء] أى : فجأة ، ومن حيث لا يشعرون .

لذلك لما نزل القرآن وآمن برسول الله بعض الصحابة اضْطهد رسول الله وصحابته ، وأوذوا حتى صاروا لا يأمنون على أنفسهم من بَطْش الكفار ، حتى كانوا يبيتون فى السلاح ، ويستيقظون فى السلاح ، لا يجدون مَنْ يحميه .

وفى هذه الحالة نزل قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] فتعجب عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، والمسلمون على هذه الحال ؟ فلما شهد بدراً وما كان فيها من قتْل المشركين ونُصْرة دين الله ، قال : نعم صدق الله ، سيُهزم الجمع ويُولُّون الدبر[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

أى : انظرونا وتمهَّلوا علينا ، وأخِّروا عنَّا العذاب ، سبحان الله ألم تستعجلوه[2] ؟ وهذه طبيعة أهل العناد والكفر إنْ تركناهم طلبوا أنْ ينزل عليهم ، وإنْ نزل بهم العذاب قالوا : انظرونا وتمهَّلوا علينا .

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٦٦) وعزاه لابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

(٢) يقول تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] أى : عجِّل لنا العذاب . وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [العنكبوت] .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ(١) ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ .. ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : أخبرني ﴿ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] ومع طول المدة، إلا أن الغاية واحدة(٢) ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء]

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الانعام] ، فقد جاءهم رسول يُعلّمهم وينذرهم ؛ ليقيم عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

هذا كله ﴿ ذِكْرَىٰ .. ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] تعني : نذكره لنُوقظ غفلتكم ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] فأنتم الذين فعلتم هذا بأنفسكم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٠٢١/٧) : « المراد أهل مكة في قول الضحاك وغيره » .

(٢) أي : لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال ثم جاءهم أمر الله ، أيّ شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم [تفسير ابن كثير ٣٤٨/٣].

ثم يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾

لأنهم قالوا : إنما تنزَّلت الشياطين على محمد بالقرآن ، وكانوا يقولون ذلك لكل شاعر ماهر بشعره عندهم ، فلكل شاعر شيطان يُمليه الشِّعْر ، وعندهم وادٍ يُسمَّى وادى « عبقر » هو وادى الجن ، فيقولون : فلان عبقرى أى : موصول بالجن فى هذا الوادى .

لكن ، كيف والكتاب الذى نزل على محمد عدو للشياطين ، يلعنهم فى كل مناسبة ، ويُحذِّر اتباعه منهم : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .. ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة] ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر]

فكيف - إذن - يمده الشيطان ويُمليه عليه ، وهو عدوه ؟ ولماذا لم يأتكم وأنتم أحباؤه ؟ هذه واحدة .

الأخرى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ [الشعراء] إن الله جعل القرآن مُعْجزاً ومنهجاً ، والمعجزة لا يتسلَّط عليها إنس ولا جن فيفسدها ، لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد طلبتْ من المؤمنين بها أنْ يحفظوها ، وفَرْق بين الحفظ منى ، وطلب الحفظ منكم ؛ لأن الطلب تكليف وهو عُرْضة لأنْ يُطاع ولأنْ يُعصَى ، وقد جربنا حفظ البشر فلم يحافظوا على كتبهم السابقة ؛ لذلك تولَّى الحق - سبحانه وتعالى - حفْظ قرآنه

بنفسه ، ولم يكِلْه إلى أحد من خَلْقه .

لذلك تجد فى هذا المجال كثيراً من العجائب والمفارقات ، فمع تقدُّم الزمن وطغيان الحضارات المعادية للإسلام ، والتى تُمطرنا كل يوم بوابل من الانحرافات والخروج عن تعاليم الدين ، ومنَّا مَنْ ينساق خلفهم ، وهذا كله ينقص من الأحكام المطبّقة من الإسلام .

لكن مع هذا كله تجد القرآن يزداد توثيقاً ، ويزداد حفظاً ، ويتبارى حتى غير المسلمين فى حفْظ كتاب الله وتوثيقه ، والتجديد فى طباعته ، حتى رأينا مصحفاً فى ورقة واحدة ، ومصحفاً فى حجم عقلة الإصبع ، ويفخر بعضهم الآن بأنه يملك أصغر مصحف فى العالم .. إلخ بصرف النظر عن دوافعهم منْ وراء هذا .

المهم أن الله تعالى يُسخِّر حتى أعداء القرآن لحفْظ القرآن ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١)﴾ [المدثر]

أليس من وسائل نَشْر القرآن والمحافظة عليه آلات التسجيل وآلات تكبير الصوت التى تنشر كلام الله فى كل مكان ؟ ولم يَلْق شىءٌ من الكتب السابقة مثل هذه العناية .

إذن : فالعناية بالقرآن كنصٍّ لا تتناسب مع النقص فى أحكامه وانصراف أهله عنها ، وكأن الله - عز وجل - يقول لنا : سأحفظ هذا النصَّ بغير المؤمنين به ، وسأجعلهم يُوثِّقونه ويهتمون به ؛ ليكون ذلك حجة عليكم .

لذلك كان عند الألمان قبل الحرب العالمية خزانة بها أدراج ، فى كل درج منها آية من القرآن ، يُحفظ به كل ما كُتب عن هذه الآية بدايةً من تفسير ابن عباس إلى وقتها ، وهذا دليل على أنهم مُسخَّرون بقوة خفية لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

وسبق أن قلنا : إن بعض النساء يَسِرْنَ فى الشوارع كاشفات عن صدورهن ، ومع ذلك تتحلَّى بمصحف على صدرها ، وليتها تستر صدرها ولا تُعلِّق المصحف .

فكيف تقولون تنزلت به الشياطين ، وقد جاء القرآن ليعلن لأهله عداءه لهم والحذر منهم ؟ كيف والشياطين لا تتنزل إلا على كل كفَّار أثيم ، وأنتم أَوْلَى بأن تتنزَّل عليكم ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١)﴾ [الشعراء] أن هذه المسألة فوق قدراتهم ؛ لأن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾

وقد شرح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ[1] فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩)﴾ [الجن]

وبعد ذلك يتكلم عن استقبال المنهج من الرسول ومن آله وأتباعه ، ومن المؤمنين جميعاً :

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدَّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٠١ ، ٤٨٠٠) وابن ماجة فى سننه (١٩٤) .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾

خاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٢١٣) ﴾ [الشعراء] فهل كان ﷺ مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ؟ قالوا : لا ، إنما المراد ابتداء توجيه ، وابتداء تكليف ، كأنه يقول له : اجعل عندك مبدءًا ، أنك لا تتخذ مع الله إلهاً آخر ، لا أن الرسول اتخذ إلهاً ، فجاء الوحي لينهاه ، إنما هو بداية تشريع وتكليف ، وإذا كان العظيم المرسَل ﷺ يتوعده الله إنْ أراد أن يتخذ إلهاً آخر ، فما بالك بمَنْ هو دونه ؟

فساعةَ يسمع الناس هذا الخطاب مُوجّهاً إلى النبى المرسَل إليهم ، فلا بُدَّ أنْ يصغوا إليه ، ويحذروا ما فيه من تحذير ، كما لو وجَّه رئيس الدولة أمراً إلى رئيس الوزراء مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ وحذَّره من عاقبة مخالفته ، فلا شكَّ أن مَنْ دونه من الموظفين سيكون أطوع منه لهذا الأمر .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

وهكذا نقل الأمر من رسول الله إلى أهله وعشيرته الأقربين ، ذلك ليطمئن الآخرون من قومه ، فهو يأمرهم بأمر ليس بنجْوة عنه ، فأول ما ألزم به ألزم نفسه ثم عشيرته ، وهذا أدْعى للطاعة وللقبول ، فأنت تردُّ أمرى إذا كنتُ آمرك به ولا أفعله ، لكنى آمرك وأسبقك إلى الفعل .

لذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان على المنبر يخطب فى الناس ، ويقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقام أعرابى وقال : لا سمعَ لك ولا طاعة ، انظر إلى هذه الجرأة على مَنْ ؟ على عمر وهو على المنبر ـ فقال له عمر : ولِمَ ؟

قال : لأن ثيابك أطول من ثيابنا - وكان القماش يُوزَّع بين المسلمين بالتساوى لا فَرْقَ بين طويل وقصير - فقال عمر لابنه عبد الله : قُم يا عبد الله لتُرى الناس ، فقام عبد الله فقال : إن أبى رجل طوَال - مبالغة فى الطول - وثوبه فى المسلمين لم يكْفه ، فأعطيته ثوبى فوصله بثوبه ، وها أنذا بمُرقَّعتى بينكم ، عندها قال الأعرابى : إذنْ نسمع ونطيع[1] .

لكن أين القدوة فى دوائرنا ومصالحنا الحكومية الآن ؟ وأين هو رئيس المصلحة الذى يحضر ، ويجلس على مكتبه فى الثامنة صباحاً ليكون قدوة لمرؤوسيه ؟ وإن من أشد ما ابتُلينا به أن نفقد القدوة فى الرؤساء والمسئولين . لذلك أول ما وُجِّه التشريع والتكليف وُجِّه إلى رسول الله ، وإلى أقرب الناس إليه وهم عشيرته الأقربون ؛ لأن الفساد يأتى أول ما يأتى من دوائر القُرْبى والحاشية التى تحيط بالإنسان ، وقد يكون الرئيس أو الحاكم بخير ، لكن حاشيته هى سبب الفساد ، حيث تستغل اسمه فى فسادها أو تُضلِّله وتُعمِّى عليه الحقائق .. إلخ .

لذلك كان سيدنا عمر - رضى الله عنه - ساعة يريد أن يُقرِّر شيئاً للأمة ، ويعلم أنه قَاسٍ عليهم يجمع أهله أولاً ويقول لهم : لقد شاء الله أن أقرر كذا وكذا ، فمَنْ خالفنى منكم فى شىء من هذا جعلته نكالاً لعامة المسلمين ، وهكذا يضمن أهْله وأقاربه أولاً ، ويبدأ بهم تنفيذ ما أراده للمسلمين .

---

(١) عن الحسن ، قال : خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة . وعن أنس قال : كان بين كتفى عمر ثلاث رقاع . [أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة ١/١٤٧] .

وتأمل ﴿ وأنذرْ عَشيرتَكَ الأقْرَبين (٢١٤) ﴾ [الشعراء] والإنذار كما ذكرنا التحذير من الشرِّ قبل أوانه ، فلم يقُلْ : بشِّر عشيرتك ، كأنه يقول له : إياك أنْ يأخذك به لين ورأفة ، أو عطف لقرابتهم لك ، بل بهم فابدأ .

وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا التوجيه ، فكان ﷺ يقول لقرابته : « يا عباس يا عم رسول الله ، يا صفية عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ولا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم »[(١)] .

وفي الوقت الذي يدعوه إلى إنذار عشيرته الأقربين يقول في مقابلها :

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) ﴾

بعد أن أمره بالشدة على أهله وقرابته يأمره باللين ، وخَفْض الجناح لباقي المؤمنين به ، وخَفْض الجناح كناية عن اللُّطْف واللين في المعاملة ، وقد أُخذ هذا المعنى من الطائر حين يحنو على فراخه ، ويضمهم بجناحه .

وخَفْض الجناح دليل الحنان ، لا الذلّة والانكسار ، وفي المقابل نقول (فلان فارد أجنحته) إذا تكبَّر وتجبَّر ، وتقول (فلان مجنح لي) إذا عصا أوامرك .

وفي موضع آخر : ﴿ واخفِضْ جَنَاحَكَ للمُؤْمنين (٨٨) ﴾ [الحجر]

---

(١) عن أبي هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿ وأنذرْ عَشيرتَكَ الأقْرَبين (٢١٤) ﴾ [الشعراء] قال : يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٥٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٠٦) .

وقال فى حَقِّ الوالدين : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤) ﴾ [الإسراء] فلا نقول : كُنْ ذليلاً لهم ، إنما كُنْ رحيماً بهم ، حَنُوناً عليهم ، ففى هذا عِزّك ونجاتك .

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾

فإنْ عصاك الأقارب فلا تتردد فى أنْ تعلنها ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾ [الشعراء] وعندها لا تراعى فيهم حَقَّ الرحم ، ولا حَقَّ القُرْبى ، لأنه لا حَقَّ لهم ؛ لذلك قال ﴿ فَقُلْ .. (٢١٦) ﴾ [الشعراء] ولم يقل تبرأ منهم ؛ لأنه قد يتبرأ منهم فيما بينه وبينهم .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعلنها رسول الله على الملأ ليعلمها الجميع ، وربنا يُعلِّمنا هنا درساً حتى لا نحابى أحداً ، أو نجامله لقرابته ، أو لمكانته حتى تستقيم أمور الحياة .

والذى يُفسد حياتنا وينشر فيها الفوضى واللامبالاة أنْ ننافق ونجامل الرؤساء والمسئولين ، ونُغطِّى على تجاوزاتهم ، ونأخذهم بالهوادة والرحمة ، وهذا كله يهدم معنويات المجتمع ، ويدعو للفوضى والتهاون .

لذلك يعلمنا الإسلام أنْ نعلنها صراحة ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾ [الشعراء] وليأخذ القانون مجراه ، وليتساوى أمامه الجميع ، ولو عرف المخالف أنه سيكون عبرة لغيره لارتدع .

لذلك يُقال عن عمر رضى الله عنه أنه حكم الدنيا كلها ، والحقيقة أنه حكم نفسه أولاً ، فحكمتْ له الدنيا ، وكذلك مَنْ أراد أنْ يحكم الدنيا فى كل زمان ومكان عليه أنْ يحكم نفسه ، فلا يجرؤ أحد من أتباعه أن يخالفه ، وساعة أن يراه الناس قدوة ينصاعون له بالسمع والطاعة .